الفصل الثامن

مواقف جديدة منذ نهايات القرن الثالث عشر

فى نهاية القرن الثالث عشر تكون قشتالة قد حققت انتصارات آخرها فتح قرطبة عام ١٢٣٦م، ثم إشبيلية عام ١٢٤٨م، فلم تكن فى نظر المسلمين هى قشتالة القرون السابقة، ولا فى نظر القشتاليين أنفسهم، فقد تغير نمط حياتهم إلى طريقة أصبحت تقليدية: «لتحيا قشتالة فى رغد!»، كما أن اليهود قاموا بترجمة كتب عربية تعليمية فى منتصف هذا القرن، وقد برز بهذه الكتب المترجمة أثر حاسم لليهود فى ظهور الأدب النثرى الأسبانى. كما أدخلت السياسة البراجماتية لألفونسو العاشر (١٢٥٢ - ١٢٨٤) الإنجيل والتاريخ العام والقانون والفلك والصياغة ولعبة الشطرنج. وهكذا اختلطت الحدود بين الشرق والغرب خلال هذه المهمة العملاقة، ووجدت قشتالة نفسها ذات أدب عامى لا نظير له فى أوروبا فى منتصف القرن ١٣، بهذا الأدب ازدادت ابتعادا عن الفكر الأوروبى وأداته التعبيرية، وهى اللاتينية، فسانت توماس وفقهاء بولونيا لم يكتبوا بالطليانية.

وهذا التميز الوطنى الذى يعنى استخدام اللغة المتكلمة فى كتب ذات شأن وافق اختيار ألفونسو العاشر إمبراطورا لألمانيا.

ويستمر الكاتب فى عرض تاريخ قشتالة حتى نهاية ١٣٥٠م. ويعرض النقاط الآتية:

١ - وجود أعداد ضخمة من المسلمين واليهود داخل قشتالة يمارسون كل الأعمال المتفوقة بينما مارس الأسبان الحرب والزراعة فى أحيان قليلة، وكان اليهود خاصة يديرون الشؤون المالية للدولة. وعموما فإن هذا الوجود لازال غامضًا.

٢ - إن نهاية القرن الثالث عشر ستشهد اضطرابا سياسيًا نتيجة كسر نظام الوراثة التقليدى بقوانين رومانية أدخلها ألفونسو العاشر الذى ثار ضده ابنه سانشو بعد موت الوريث الذى عينه ألفونسو، وهو فرناندو دى لاثيردا.

٣ - فى أثناء هذا الاضطراب يلعب الشعب دورا فعالا وتظهر الجماعات الإخوانية الدينية كقوى سياسية للمحافظة على مصالح بعض الأعيان.

٤ - يتميز القشتالى كمسيحى فى سلوكه ولكن بخلفيته الإسلامية العبرية، وتختفى الروح الملحمية وتظهر الروح الفردية وتصبح الملكية - رغم اضطرابها - هى الجامع الوحيد لشعب من الأفراد، وتميز الفرد أدى إلى ظهور النثر الوجدانى الروائى، وهو نثر يبقى فيه من ملامح ملحمة «السيد» الروح التاريخية الواقعية وتختفى منه الأسطورة ويميل لقص ما وجد الأفراد أنهم فى مسيس الحاجة للتعبير عنه، حديثًا عن أنفسهم، التى أصبحت مركز الحياة عندهم.

٥ - إن فهم القشتاليين للمسلمين فى أسبانيا لم يجعلهم يفقدون الإحساس بالخطر الإسلامى، وإنما اشتغلوا بشؤونهم عارفين أن الخطر الإسلامى يوقفه بل يقضى عليه وحدتهم التى كانت تتمزق فى ظل عدم التجانس فى مجتمعهم الذى يكثر فيه المسلمون واليهود، وفى ظل اضطراب الملكية الأسبانية منذ موت ألفونسو العالم فى نهاية القرن الثالث عشر، وفى الحقيقة كان المسلمون أعداء لا يقهرون، ومع ذلك فإن حروبهم مع المسيحيين فى أسبانيا كانت شيئًا آخر. اعتمد على فهم المسيحيين للمسلمين ومحاكاتهم ومجافاتهم فى آن.

٦ - إن سلوك الملوك الأسبان فى هذه الفترة يشبه سلوك ملوك المسلمين، فألفونسو العاشر (العالم)، الذى قتل أخاه مثلما قتل المعتمد بن عباد أحد أبنائه، يصنع صنيعه ابنه سانشو الرابع الذى قتل بيده الرجل الذى يعتمد عليه دى آرو مثلما قتل المعتمد بن عباد رجله ابن عمار.

٧ - إن نشأة النثر القشتالى يمتزج فيها الأسلوب الإسلامى (الذاتى - الموضوعى) لكن بانفراد الروح الأسبانية بالميل أكثر إلى الواقعية الروائية.

٨ - إن نهاية القرن الرابع عشر يتجلى فيها تطور النثر الأسبانى المتمثل فى كتاب «الحب الطيب» لقمص هيتا الذى سيفرد له الفصل التالى.